المُديـــة

قصّة بقلم مارتن هول

أوه لا ، سيدي .. معذرة ، هذه المدية ليست للبيع . كل ما تراه حولك في دكاني المتواضع للبيع ما عدا المدية . في الحقيقة كان يجب أن لا تكون موضوعة هنا : لقد تركتها هناعفوا بعدما شحذت نصلها على الفولاذ هذا الصباح .

قد لا ترى ميزة خاصة في هذه المدية ـ ما لم تكن صاحب خبرة، هذا كل ما في الامر . آه ، يبدو لي أنك خبير . أنظر ـ كيف تلاطفها بأصابعك .

المدية امرأة : يراها الصبي بعينيه ، والشاعر بخياله وتوهماته، أما الرجل فيراها بلحمه . لا ، لا تكن محرجا : تحسسها ، باصابعك ، تعرف عليها بلحمك ، واحترس كما تفعل عندما تلامس امرأة . فحدها ماض مثلما هو صقيل .

ولكن قد لا أكون منصفا لها عندما أتفوه بمثل هذا الهذر . فالمدية الحقيقية بمثابة صديق وفي : بينما المرأة شيء مجهول بالنسبة للانسان وحتى للوحش . في هذه البلاد يعرف الرجال المدى، مع أن هذه المدية ليست من نمط مألوف هنا . أنت من بعيد ، من بلد آخر ، في زمن آخر .

كيف حصلت عليها ، ومن أين ؟ ـ حسنا ، تلك حكاية أخرى . كان ذلك منذ عهد بعيد . كنت آنذاك فتى ، في الثامنة عشرة ، كنت ضخما قويا معافى مثل شجرة ، غبيا مثل شجرة ايضا .

كنت صاحب أطراف سميكة ، وعضلات قاسية ـ كما يجب ان يكون للرجل ـ ، وكنت صاحب نزوات ـ كما يجب أن يكون للرجل أيضا ـ أما حكمتي فكانت حكمة امرأة أو مدية ، كنت لا أزال ـ في الحقيقة ـ صبيا .

كم تحولت في تلك الايام ، كان الامر سهلا آنذاك ، طبعا . كان بمستطاع الناس أن يعيشوا على القليل ، ولم يكن ثمة أشكال حول وثائق السفر ، وأوراق العملة كما هي الحال اليوم . ربما كان الامر مختلفا بالنسبة للسياح ورجال الاعمال : لا أدري . لسان صموت، وظهر قوي ، وحذاء جيد أحيانا .. هذه الاشياء ـ فحسب ـ كانت جواز سفر كاف بالنسبة لي .

هذا الادرياتيكي عرفته مثلما يعرف حفيدي غرفة استحمامه اليوم . والبحر المتوسط ، والامواج الاكثر برودة أيضا . سافرت وتسكعت عبر بلاد غريبة ، وكل ما امتلكه من حطام الدنيا تحتويه حقيبة منسوجة تتعلق بكتفي ـ . نعم ، حقيبة كتلك الحقائب التي تراها معلقة على الحائط هناك ـ .

وفي احدى هذه الرحلات الى الشمال ، حيث لم أر الشمس لمدة ستة شهور ، عثرت على هذه المدية .

أنظر شكل غمدها الغريب . كيف يحتضنها مثلما تحتضن الزجاجة سدادتها ، مع هذا للغمد شكله الخاص . الله وحده يعرف لماذا .. ربما لان الرجال الذين صنعوها كان يحترمهم الناس كسحرة العهد القديم ، واعتاد البحارة أن يقدموا لهم الهدايا كي يستدعوا لهم الرياح الاربع من مكامنها . أنظر ـ اقلبها ، هزها : المدية يؤمن جانبها ، ومع هذا عندما نسحبها من الغمد .. نعم ، هكذا .. تصبح جاهزة في لحظة .

تحس المقبض ، تحسسه جيدا ، تجده ناعما ومثيرا في راحة اليد مثل صدر امرأة . مصنوع من خشب البتولا الممتاز . تعبت في صقله وتنعيمه يد انسان حتى شع مثل قماش الساتان . قطعة واحدة، ولا مفصل ، وتلك العلامات الغامقة التي تبدو على المقبض الذهبي اللون هي من انماط الطبيعة الغامضة ، تشبه بطن فهد يعيش في مناطق الثلوج .. كذا اعتدت أن أقول لنفسي .

أتستشعر ثقلها ـ صالحة للحياة وللموت على السواء . هل تحلق بها ذقنك ؟ آه ، انك تمزح سيدي . لكن هذه المدية تستطيع شطر نصل عشبة تطير في الهواء . وانظر الى فولاذها (ولكن باحتراس الآن). ليس لماعا ، ولا ممتنعا على الصدأ ،وليس كليل الحد ، كما هي المدى الاخرى التي يبيعونها في المدن للرجال الذين لا يعرفون الافضل . لا ، هذا هو الفولاذ الحقيقي الذي لم يتعرض لتزييف الصقل ، بحد قاطع كالاسى .

أنت تحدق فيه . هل ترى الآن لماذا أشبه المدية المرأة ؟ الحياة أيضا ؟ لن ترى صورة واضحة على الفولاذ ، الصورة موجودة ولكنها مبهمة وقاتمة ولا تستطيع تمييز خطوطها أو الظلال الكامنة خلفها .

كانت المدية معلقة على جنبي عندما عدت الى الوطن ، الى هاتيك الجبال منذ خمسين أو ستين سنة . كنت قد مشيت أياما طويلة، ونمت في الحقول ، واشتغلت وأنا في طريق عودتي في مزارع التبغ غالبا ، كان لون بشرتي بنيا ، وكنت صلبا وفتيا ، ولم يكن في جيبي الا القليل من النقود . كنت متجها الى العاصمة القديمة ، ولم تعد اليوم عاصمة ، الزمان يتغير ، وكذلك حدود البلدان ، والرجال . كل شيء يتغير ، ما عدا المدية الاصيلة .. أين وصلت ؟

آه ..في العاصمة القديمة ، المتعالية وسط الخضرة ، الدافئة مثل عش أقيم بين الصخور الرمادية الملتهبة في هاتيك الجبال ، هناك ، قررت أن أكافىء نفسي بيضعة أيام مرفهة . أنت تبتسم، لكن العاصمة لم تكن مثل مدن اليوم . كانت لا تزيد عن أية قرية الا قليلا . الناس يسكنون في بيوت صغيرة أقيمت من حجر او خشب . وكانت عاصمة لمجرد ان الحاكم ـ الذي لا يذكر اسمه حتى الآن حفيدي اختار ان يبني فيها قصره حيث يكون بمنأى عن جيرانه الطموحين . هل قلت ((قصرا)) ؟ اليوم ، لا تستطيع ان تطلق عليه أكثر من بيت ريفي.

((الرفاهية)) التي كان بوسع العاصمة ان تقدمها لي كانت سريرا نظيفا ذا أغطية ، ووجبة طعام طهاها شخص آخر في قدر نظيف ، ومقدارا من النبيذ أتناوله في المقهى الرئيسي في ميدان العاصمة حيث كان رجال الجبال المدججون بالسلاح يزعجون الليل بخطواتهم .

وفي المرحلة الاخيرة من رحلتي ارحت قدمي اذ ركبت عربة تجرها الخيول ، أخذت عجلاتها تصلصل حتى وصلت الى موقفها في ميدان العاصمة . وسارعنا بالنزول : الغرويون والقرويات ، وفراخ الدجاج والعنزة الصغيرة ،وأنا . وفي الحال احاطت بنا مجموعة من النسوة ، شعرهن أسود مثل تنانيرهن ، وعيونهن تلمع كما التطاريز التي تزين مراييلهن .

وعليك أن تعرف ، ياسيدي ، أنه لم تكن ثمة فنادق في العاصمة في هاتيك الايام . وكان من عادة سكان العاصمة ان يقابلوا العربات حالما تصل ليعرضوا على الوافدين مأوى في بيوتهم المتواضعة . مقابل نقود ، طبعا . كان الناس اكثر فقرا آنذاك . وكان هناك غرف تزيد على عدد المسافرين ، فكانت المنافسة في اصطيادهم تبلغ حد العنف.

وجاء دوري في الاختيار ، وتفحصت ربات المنازل وهن يتدافعن

علينا ، ويطرين مزايا الطبخ والنظافة والراحة في بيوتهن . وحتىأكون صادقا معك ، سيدي ، علي ان أعترف بأن عيونهن لم تكن تبدو لي بريئة تماما . كانت الشمس حارة اثناء الرحلة ، والرحلة ،ذاتها كانتطويلة وموحشة ، وكنت فتيا ومعافى وشغوفا بالمغامرة ، ولكن تنقصني القدرة على المبادءة ، وأملت يومذاك أن بين هؤلاء النساء .. حسنا ، أنت رجل ، ستفهم . كلنا بشر ، على الاقل حينمانكون في عنفوان الصبا .

ولكن حينما تفحصت النساء بنظري تلاشى الامل . كلهن كن فوق منتصف العمر . ولا واحدة أصغر من ذلك . ولا واحدة بدت ـ لحملقتي اليائسة ـ اكثر نحولامن عمود العربة التي نزلت منها توا . أحلام الرحلة في الفوز ،في اختلاس المسرات التي حرمت منها نفسي مدة طويلة ، .طارت . ولم أعد اكترث ، أخبرت أقرب امرأة مني ـ وكانت تبدو جدة ـ انني سأشغل غرفة في كوخها ليلة واحدة بالسعر المعقول الذي حددته .

وفي غمرة خيبة الامل التي منيت بها ، لم اشأ ازعاج نفسي بالسؤال عن مكان بيتها . فمشينا معا حوالي نصف ساعة واجتزنا ضواحي العاصمة قبل أن يظهر امامنا بيتان صغيران من خشب .

كانا منفردين على منحدر جبل ، ويفصل بينهما حوالي مائةمتر. وعندما وصلنا اقربهما قالت المرأة العجوز : « ستنزل هنا . بيتي خلف هذا »

ـ ولكن لا أفهم ..

ـ زوجي عجوز ومريض . لا أستضيف رجل تحت سقف بيتيحتى يشفى ، باذنالله . ستنزل في بيت ابنتي ،هنا . تحتاج ـ هي ـ نقودا ما دامت تعيش مع ذلك الزوج الذي لا يصلح للقيام بشيء . وستعتني بك مثلما أفعل . وستعطيني ـ هي ـ بعض النقود لانني احضرتك . هذا متفق عليه بيننا » .

أخذت بالاحتجاج . ليس لانني مهتم، الآن ، بمكان البيت . ولكن لانني لم أر لماذا يجب ان أضع نفسي تحت رحمة تدبير مجموعة عجائز لارمى هنا أو هناك مثل شوال من التبن . بدأت أقول مثل هذا للعجوز، ثم تلاشى الصوت من فمي عندما انفتح الباب على مصراعيه الرخوين ووقعت عيناي على المرأة الواقفة هناك ، المستحمة توا ، المتوهجة بسبب الضوء الاحمر للشمس الغاربة .

لا نسألني فيما اذا كانت جميلة . كل ما أذكره عينيها ، في مثل سواد الفحم لونهما . وشعرها أسود كثيف ملموم على شكل كعكة رائعة خلف رأسها . وقفت في مثل سكون وعمق مياه بحيرة ضائعة. مع هذا احسست ـ في الحال ـ النار والحياة . وبدأ الهواء الذي يفصل بيني وبينها وكأنه يرتعش .

تبادلت الكلام والنقود مع المرأة العجوز التي غادرتنا بعد ذلك . وتنحت ـ المرأة الشابة ـ جانبا حينما مررت بها صاعدا الى (العلية) حيث غرفة النوم الوحيدة . كان السرير الضخم يبدو نظيفا . وعلى المنضدة خبز وقديد وقربة نبيذ . واخبرتني أنها غرفة النوم الوحيدة في المنزل ، وهي وزوجها ينامان في المطبخ حينما يكون هناك ضيف. وسألتني اذا كنت سأدفع أجرة البيت مقدما ، حيث أنها ستبكر الى السوق قبل أن أفيق في الصباح . وقالت « لا بد وانك متعب وجائع ، وتريد أن تنام حالا » ، وتمنت لي ليلة سعيدة . هذاكلماقالته.

اكتظت معدتي بالطعام والخمرة . فالقيت بنفسي على السرير، واضطجعت على ظهري وشبكت ذراعي خلف رأسي . وتراقصت فينفسي الشياطين . وفي خبرتي لم تعصف بي الشهوة ـ من قبل ـ بمثل تلك القوة ، سيدي ، والشياطين هيجت جسدي ومخيلتي في تلكالليلة الواجمة الطويلة المسعورة .

على هذا السرير اضطجعت مع زوجها .. واشتعلت التصورات في نفسي . والآن ، في الطابق الاسفل ، ربما في هذه اللحظة تماما . لم أسمع خطواته عائدا .. ولكن ربما في هذه اللحظة تماما، في الغرفة الجاثمة تحتي .. تلويت بعنف على السرير في عذاب الرغبة ، والبحث عن النوم ، وحينما واتاني النوم أخيرا جلب معه شياطين أخرى جديدة .

وفي السابعة صباحا ـ وهذا وقت متأخر بالنسبة لي . أستيقظت نزلت السلم عاري الصدر مرتديا بنطالي فحسب . لم أر أحداً ، اللهم الا بضع دجاجات هزيلة يلتقطن الجريش من بين أوراق الحشائش النابتة بجانب الممر . ووقفت بجانب قناة الماء ودفعت الى صدريغرفات من ماء الجبال الصاقع ، ثم انحنيت وغطست رأسي . انتعشت حواسي . لحم الاوزه منع عني ما هو اكثر من قشعريرة في الجسد ، ورفعت رأسي ورأيت المرأة تراقبني . سلتها في ذراعها وقد عادت من السوق . كانت عيناها تمسحان جسدي ببطء .. كل جسدي . ثم توقفت عند صدري ، ولم ترفعهما الى وجهي . وقالت ببساطه : « تحتاج لفطور »

قلت : « سأصعد لارتدي ملابسي » وكنت انفض الماء عن شعري محرجا .

وتساءلت : « ولم ؟ .. الطعام جاهز في المطبخ »

وهكذا جلست وتناولت بيضتين ـ على ما اذكر ـ وخبزا اسود ، وابريقا من لبن الماعز .. وجلست قبالتي وذراعاها البنيان يستندان الى المائدة . كانت تراقبني ولم تنبس بكلمة .

نهضت وقلت : « حسنا .. من الافضل .. سأقوم بـ ... هذا هو »

واجهتني ببساطه ، بذلك الصمت المسيطر الذي أضرم النار في، فما عدت اعرف ماذا أقول وبماذا أفكر . تركتها وصعدتالى غرفتي مرتبكا . كنت ألهث وكأنما صعدت منحدر جبل لا سلما . واسندت مرفقي على عتبة النافذة . وحملقت ـ بدون أن أعي ما أبصر ـ في السديم البعيد . وازدردت جرعات من الهواء . وتلفت حين سمعت قرقعة مزلاج الباب .

دخلت الى الغرفة تحمل طبقا وعليه زجاجة براندي وكوبان ، وضعت الطبق على المنضدة وقربتها مني . وقالت « يحتاج الرجل الى أكثر من الطعام حتى يبدأ يومه » . وبعدئذ ، ولاول مرة كما بدا لي ، نظرت الى وجهي ، وبسطت يدها وأراحتها على صدري . وفي تلك اللحظة أصبحت الشياطين حقيقة ولم تعد خيالا .

آه ، سيدي ، في هذه السنين الاخيرة ... كم من ليلة لي في شتاء العمر أنعمت بالدفء اذ أصطلت بنار ذكرى تلك المرأة . كانت تكبرني بخمس أو ست سنين ، ولان كل انثى تولد في هذا العالم وهي تزيد على الرجل بعشر سنين ومن الحكمة ، كانت المرأة تفوقني كثيرا في معرفة الرجال والنساء ولكنني لا أفاخر اذا قلت انني كنت تلميذا جديرا بها .

أين وصلت في الحديث ؟ آسف ، يجب أن لا أغرق في أحلام اليقظة . طوال ذلك النهار مارست الحب وكأنني لم أحب منقبل.ومرة تملكني الخوف حينما تذكرت زوجها ، ـ ليسامحني الله ـ وأنه قد يدخل فجأة ويرانا . وسألتني أن لا أقلق بهذا الامر : كان الزوج في الجبال البعيدة ولن يعود قبل مضي يوم ونصف يوم . وسألتها : «اذن كنت وحيدة في الليلة الماضية ؟ »

ـ نعم

ـ ولكن لماذا ؟ لا افهم . لو عرفت ... لماذا كان علينا أن ننتظر ؟

ـ أردت ان افكر في الامر واقرر .. كان مهلة لي لاقرر .

ومرة أخرى مدت يدها الى صدري ،ومرة اخرى ضعت .

وكان اليوم الثاني . على ما أظن ـ لان الوقت يمضي بسرعة على وسادة المخدع ـ حين مرت المرأة العجوز على البيت . قالت تخاطبني « حسبتك ستقيم ليلة واحدة » .

أجبت .. وهكذا حسبت نفسي .. ولكن اخي الذي كان عليه ان يقابلني في العاصمة تأخر كما يبدو .

وعلي أن أمضي أياما اخرى منتظرا لعله يحضر » .

الاكاذيب تسير مع العشاق في درب واحد .

ولما استهلكنا ساعات الحب المسعورة ، واخذ ميعاد عودة الزوج يقترب اخذت معشوقتي تتكلم عن زوجها . كان واحدا من المتمردين ، ذلك الرجل . ولم يكن ما بيننا لان زوجها كان يكبرها بخمس عشرة سنة ، او لانه غالبا ما يمكث بعيدا عنهافي الجبال. لم يكن الامر ايضا لانه لم يمنحها طفلا . بل لانه كان يعتبرها أمة ، قطعة من أثاث البيت.

وقلت محتجا ((ولكن الخطأ ليس خطأ زوجك)) ولا اعرف حقيقة لماذا دافعت عنه . وقلت :

((كذا شأن الرجال والنساء .. الرجل هو السيد والمرأة هي..))

وقاطعتني : ((هل سيكون الامر كما تقول حين تتزوج ؟))

ـ ((طبعا))

ـ ((اذن ، ايها الحقير ، أحمدالله لانك عشيقي لا زوجي)) ، قالت هذا وخمشت عضلاني بأظافرها من باب المرح او الغضب ..لا أدري .

عاد زوجها مع الغروب . شخص خشن ذو شعر كثيف وله شارب مثل سائر رجال الجبال . تناولنا الطعام على نفس المائدة ، وكالعادة استعملت هذه المدية في تقطيع الخبز واللحم . أعجب بالمدية وسألني اين حصلت عليها . واخبرته بينما انسلت المرأة متشاغلة بواجباتها في المطبخ وعليها سيماء النار حينما يخبو أوارها .

راقبني بينما كنت أنظف المدية ، وسألني أن يراها عن كثب .وكانت أصابعه أصابع رجل يعرف وزن المدية . وقال اخيرا ((مدية لطيفة .أنا متأكد أنها كلفتك قطعة فضية)) .

وأومأت برأسي .

((لا بأس . سأعطيك قطعة ذهبية مقابلها ،وستكون اكثر مما حواه جيبك من قبل))

والحق ، ياسيدي ،أنني تقريبا وافقت. صحيح أنها كانت شيئا خاصا ، لكنني كنت فقيرا ، وقطعة ذهبية كانت تعني لي الكثير . وبينما انا متردد ، رأيت عيني المرأة تحدجان .. تحدجانني والزوج والمدية التي كانت موضوعة بيننا كالتحدي . كانت عيناها تراقبانوكان الامر يحمل في طياته اكثر من مساومة على امتلاك مدية . وفجأةشعرت وكأن اعتزازي وحريتي ورجولتي على خشبة الاعدام .

أمسكت بالمدية ، ونهضت فجأة وقلت ((آسف ، ليست للبيع .ليله سعيدة))

النفس الانسانية غريبة ومتناقضة الجوانب .. ليست بسيطة أو واقعية ولا تتألف في نسقواحد كما المدية . فحين يعرف الانسان أن ليس بمقدوره الحصول على شيء ما لماذا يظل يتوق اليه بعناد أكثر . وكان علي أن أفكر ست مرات في غضون اليوم التالي عندما حاول الزوج شراء المدية مرارا ، وكلما ازداد حماسه للحصول عليها ، كلما ازداد تصميمي على الاحتفاظ بها .

عرض علي المزيد من النقود .. وزاد عليه . عرض علي بندقيته، حزام الطلقات ، وحتى في النهاية ، عرض حصانه . وكلما انقضتساعة من ذلك النهار ، ازداد تسلط فكرة امتلاك المدية على عقله .كان يحدق بها مثلما كان (ميداس) يحدق في الذهب . ولم تعد مدية بالنسبة له : اصبحت رمزا .. رمزا لقوتي وشبابي . لقد أدرك هذا ، وانا ادركته . وعينا الزوجة أظهرتا ازدراء للصفقة التي انشغل الزوج بها.

وفي وقت متأخر من تلك الليله حاول مرة أخرى . اخذ يتملقني ويداهنني مثل مراب يحاول اقناعك أنه مهتم بفعل الخير . ابتسمت وأومأت برأسي ، (لانه في هذه البلاد ، وربما لاحظت ذلك ، قد جرت العادة على أن ايماءة الرأس تعني ((لا)) أما هزة الرأس فتعني ((نعم)). ولا اعرف لماذا لا يفعل سكان البلادالاخرى مثلنا . انهم يربكون سياحنا. على اية حال ..) عندما ابتسمت وأومأت برأسي انفجر من الغيظ . قال انني استغل ضيافته . وانني لست جديرا بها ، فبينما استعمل كل ما يخصه بما يخصني .عليّ أن اذهب ،هكذا قال . في تلك الليلة . واندفع من باب البيت بعنف يضرب في ظلمة الليل .

وعندما أغلق الباب وراءه تكلمت زوجته . ((ليس من الضروري ان تذهب الآن . عندما يعود سيكون فاقد الوعي من سكره ، ولن يعرف شيئا . تعال ..))

وقادتني عبر السلم الضيق .وعند باب السلم الضيق . وعند باب غرفتي استدارت ، ولاول مرة ابتسمت في وجهي وقالت :

((هكذا قال .. كل ما يمتلكه لك)) . لم استسغ ابتسامتها . ولكن الفكر سرعان ما غرق في دوامة النشوة .

كنتقد انتهيت من تناول فطوري في اليوم التالي حين دلفزوجها الى المطبخ ، وقد طال شعر ذقنه ، وآثار السكر لا تزال بادية عليه . رأى حقيبتي عند قدمي . وسحب كرسيا وجلس بجانبي . وبأصابع مرتعشة حاول ان يلف سيجارته . غمغم : ((انظر .. أنا آسف لماحدث الليلة الماضية . لا حاجة بكللذهاب .كل ما في الامر انني.. يجب ان احصل على تلك المدية . لا أعرف لماذا . لقد أصبحت ... بشكل جنوني .. مهمة عندي . يجب ان امتلكها . يجب . أرجوك ..))

حدقت فيه ، وتملكتني بوادر الشفقة عليه (ممزوجة باحساس بالذنب ، ما دامت حرارة فراشه لا زالت في أوصالي) . رفع وجهه قريبا مني . كانت رائحة الخمرة الرديئة تفوح من انفاسه . وعيناهكانتا محمرتين ، تتوهجان بمثل ذلك الضوء الرهيب الذي ينبيء ان العقل قد ذهب . ((بالتأكيد هناك شيء تود أخذه مقابلها)) .

أخذ صوته يعلو . وتركت زوجته الموقد واخذت تراقبنا .

قال : ((لقد عرضت عليك كل شيء املكه .. وكان من الممكن أن أعرض عليك هذا البيت .. أجل هذا البيت لو انني امتلكه . لكنه ملك لتلك العجوز الشمطاء ،أمها .)) وهز رأسه باتجاه امرأته ، وبعد ذلك غدت عيناه صفيرتين وتراءت ملامح ابتسامة على شفتيه الجافتين . ((أي شيء يخصني .)) قال هذا وكأنما يحدث نفسه ، ((هناك شيء يخصني.. هذه المرأة الجميلة ، أليست جميلة ؟ وشابة ايضا)) قذفت المرأة طبقا خزفيا على الارض . وتطايرت اجزاؤه ، بينما الرجل يقول ((حسنا، ما رأيك ؟ سأمنحك المرأة لمدة ليلة مقابل المدية .))

نظرت الى المرأة.تورد وجهها . ولهث الصدر منها .حدقت فيّ. سحبت المدية من حزامي والقيتها على المائدة . وقلت : ((ليكن ، ليلة مع المرأة مقابل المدية)) والتفت ناحيتها : ((هذا اغلى ثمن بامكاني دفعه، لانه ليس هناك من أحد ـ عداك ـ يجعلني اتخلى عن كنزي الثمين)) .

وهذه المرة صوبت الطبق الخزفي على رأسي ، ولكنني املته فتكسر الطبق على الحائط . وقالت :((خنزير ، كلاكما خنزير . أنت)) طعنت باصبعها الهواء مشيرة ناحيتي)) .. تتكلم عن كنزك وتعتقد انه بامكانك امتلاك امرأة بصفقة تجارية .. أنت لا تعرف معنى الامتلاك .. ولن تمتلك شيئا .. لم أنم معك ولو كنت آخر رجل على وجه الارض)) .

ثم تحولت الى زوجها : ((وأماأنت، انت أيها المنفوخ الشمل .. تريد

سقوط الأقنعة ..

ديوان جديد

لشاعر المقاومة في الارض المحتلة

سميح القاسم

صدر حديثا : ٢٠٠ ق٠ ل

المتاجرة بجسدي وكانني سلعة بين يديك . من ناحيتي ، أنت آخر رجل على وجه الارض .. مع ان كلمة « رجل » لا تنطبق عليك .. لقد امتلكتني في الماضي لكنني لم أعد عبدةعندك.. أخرج ، كلاكما أخرجا » .

حاولت الوصول الى طبق آخر .مما أتاح لي ان امسك مديتي وحقيبتي ، قبل ان أمضي ـ مرتبكا ـ الى الباب . وبقي الزوج مكانه. سمعتها تصرخ بانفعال أيضا هي ما أبدته لي على السرير فيالليالي التي مرت ، وان كان انفعالا من نوع آخر . لم اسمع صوت الرجل، وبعد ذلك اسرعت في مشيي .

وبينما انا ماض ، تساءلت ،سيدي : أهي ممثلة حاذقة انتهزت الفرصة لتزيل أي احتمال للشك عند زوجها ؟ أم كان غيظها مني حقيقيا؟ هل شعرت بالاهانة فعلا لانني حاولت ان اشتري من زوجها جهارا ما منحته لي من تلقاء نفسها سرا ؟ آه .. من يستطيع أن يعرف ما يدور حقيقة في عقل المرأة ؟

لكنها كانت امرأة رائعة ، مع ذلك . وخلال السنين الماضيةكثيرا ما عادتني ذكراها خصوصا عندما امسك بمديتي هذه . وهل تعرف ، سيدي ، أحيانا .. اعتقد ان المرأة وزوجها كانا اكثر حذقا وتجربة مني في تلك الايام . أحيانا أفكر أنه ربما كان الزوج يشك ـ آنذاك ـ بعلاقه زوجته بي . فلو قبلنا ـ أنا والزوجة معا ـ عرضه الخاص ، لتأكدت شكوكه . وعند ذلك ما كان ليوفر حياتي أو مديتي . هكذا اعتاد سكان الجبال ان يفعلوا .

وتعرف .. عندما توقفت زوجته عن شتمه ، لا بد انه فكر : « كم هي رائعة وشريفة ومخلصة هذه الزوجة .على أن استرضيها لانني أهنت شرفها » . ومن يدري ؟ ربما عاشا سعيدين بعد ذلك .

آه .. أي قصص تحكيها هذه المدية ! ولكن ما هذا ، سيدي ؟ولم تخرج كل هذه العملة ؟معك ما يكفي لشراء دكاني كله .

تريد شراء المدية ؟ لكن ، سيدي ، أخبرتك لماذا لا يمكنني بيعها . حتى ولا مقابل هذه النقود الكثيرة . حرف ش » على النصل ؟ ولحية ، سيدي ، انها علامة تخصني ، ولها حكاية اخرى ، بامكاني أن أرويها على مسمعيك أيضا . انه بداية اسمك ؟ حسنا ، أوافقك ، ان هذه صدفة . أجل ، سيدشارلز ، تستطيع ـ بالتأكيد ـ أن تخبر الناس عندما تعود للوطن أن هذه المدية قد صنعت خصيصا لك . أنها ، بعد هذا كله ،فريدة من نوعها . ولكن حتى مقابل هذه النقود الكثيرة لا أستطيع..

ولكن ، سيدي ، انها لا تستحق هذه المزايدة . في أي دكان هنا تستطيع أن تشتري مدية بنصف عشر هذا المبلغ .. أوافقك ، مديةعادية جيدة ، بلا ميزات خاصة ، ولكن لا تزال ..

سيدي ،قلبي يطير . أناضعيف . ما فشل في الحصول عليه رجل الجبال مقابل زوجته ، فزت فيه أنت ، نعم فزت . ولكن عدني بانك لم تخبر احدا في هذه المدينة ان جوزيب العجوز باع مديته . سينهي العار حياتي . تفضل .. المدية لك . سألفها ، وعليك أن تعدني بانك لن تفتح اللفه الى ان تصل الى اميركا . سأقول لك أنه ، سيدي ..بورقة عملة اخرى تستطيع شراء واحدة من هذه الحقائب المنسوجة المعلقة على الحائط هناك ، لتحفظ المدية في داخلها .

هكذا .. تماما .سيدي، لقد اخذت مني اكثر من مدية . اخذت جزءا من حياتي . أشكرك . سيدي .. نهارك سعيد ، مع السلامة .

ليزا .. انهضي يابنت ... بينما افكر في القصة . ارسلي طلبا لتلك الشركة في .. أين توجد ؟ في شفيلد ؟ .. نريد كمية أخرى من هذه السكاكين الرخيصة . نعم ، من نوع « ش » ، لتكن كلها موسومة بهذا الحرف . وناوليني مدية أخرى من الصندوق . واحدة فقط .

ترجمة اديب نايف

(عن مجلة « ارجوزي » أبريل ١٩٦٩)

صدر حديثا

* **من الحقيقة الانسانية الى الحقيقة الانقلابية**
  الدكتور نديم البيطار
* **في التنظيم الثوري**
  ستالين ، لوكاش ، تروتسكي وغيرهم
* **الماركسية والمسألة اليهودية**
  ناجي علوش
* **النقد الذاتي بعد الهزيمة**
  (طبعة ثانية)
  الدكتور صادق العظم
* **الثورة المسلحة في فنزويلا**
  دوغلاس برافو
* **الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١**
  محمود الدرة
* **نحو استراتيجية عربية جديدة**
  اكرم ديري ـ الهيثم الايوبي
* **العمل الاشتراكي وتناقضات الوضع اللبناني**
  حلقة دراسات « لبنان الاشتراكي »
* **حوار مع مطالب بالبوليس الدولي على الحدود**
  فادي احمد

منشورات

دار الطليعة للطباعة والنشر

بيروت

ص.ب ١٨١٣